المبحث الثاني

التشكيك في الإسلام

● في استهتار مشين يكذّب القمنى أنبياء الله جميعاً ابتداءً من أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ويمدد اتهاماته بالكذب لتنال الرعيل الإسلامي الأول وزمن الصحابة رضي الله عنهم .

ـ يقول القمنى إن الكذب كانت له مسوغاته : «من زمن الرعيل الإسلامي الأول وزمن الصحابة وأيام تدوين الأحاديث ، فهو الكذب المستحب بالضبط كالأحاديث النبوية المكذوبة لكنها المستحبة ، وأنها رغم كذبها فهي في سبيل الله ، وأن مثل هذا الكذب الشرعي ليس جديدًا ، فقد أسَّس له أبو ديانات المنطقة وأبو أنبيائها سلفاً عن خلف عندما كذب ثلاث كذبات تُوصف بأنها جميعًا (في الله) وذلك عندما ادَّعى السقم وعندما قال فعلها كبيرهم هذا ، وعندما قال لملك مصر عن سارة زوجته (هي أختي)» .[1]

● وأنا أبدأ بمناقشة اتهامه لأبى الأنبياء (ﷺ) ثم أعرض لاتهاماته للصحابة رضي الله عنهم بعد ذلك .

● فأقول :

– **أولاً** : إنه حسم الموقف من عقيدته ، فكلامه هنا يفيد بأنه لا يؤمن بالأنبياء والرسل ولا يعترف بصحة الكتب المنزلة عليهم ، دون استثناء فالكل سواء من إبراهيم إلى محمد ﷺ .

---

(١) السؤال الآخر ؛ ص ٩٥ ، ٩٦ .

وهو يعلم يقيناً أن هذه الاتهامات تتنافى مع عدد كبير من آيات القرآن الكريم التي تشهد للأنبياء بالنبوة والصدق وتتحدث عنهم بكل احترام وإجلال . فهو يناطح القرآن ويعاند آياته وينفى ما أثبتته . فلا حاجة لأحد لأن يشق عن صدره ليعرف عقيدته ، لأنه عبر عن مكنونه بأوضح ما يكون التعبير .

● وأنا أبدأ ببعض الآيات القرآنية التي شهدت للأنبياء بالنبوة والصدق :

- قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(مريم:٤١)

- وقال ﷻ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم:٥١)

- وقال سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم:٥٣)

- وقال ﷻ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم:٥٤)

- وقال تعالى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(مريم:٥٦)

- فصدْق الأنبياء بديهية إسلامية بحيث يتحرج الباحث من محاولة توكيده . لكنني مضطر في مواجهة هذا المفترى الكذاب إلى ذلك ، فأقف عند أضيق الحدود . والمسلمون يعلمون يقينًا أن الإيمان بصدق الأنبياء شرط لصحة إيمانهم بالإسلام . والله تعالى يقول في ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤)

● هذه الآيات تنسف اتهاماته الطائشة الوقحة للأنبياء بالكذب !

● والآن ، ما حقيقة الكذبات الثلاث التي ألصقها بأبي الأنبياء ﷺ؟

- حقًا قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ».[1] ولكن لم تصدر عن النبي ﷺ أية إدانة أو لوْم لإبراهيم لأن هذه الكذبات تعتبر فضائل

---

(١) ابن كثير ؛ البداية والنهاية ؛ ١/١٥٥ .

بالمعايير الأخلاقية ، لأنها أدت إلى صيانة ثلاث قيم أعلى من قيمة المعرفة . وقد اعتبر فلاسفة الأخلاق أن مثل هذا الكذب واجب . ويُضرب المثل عادة بالطبيب الذي يسأله مريضه عن خطورة مرضه هل يقول الحقيقة ، أم يكذب عليه ، ويقول ـ مثلاً ـ عليك أن تنتظم في تناول الدواء ، ولا تفقد الأمل في الشفاء؟ إنه إذا قال الحقيقة فإنه يدمر الروح المعنوية للمريض ويزيده آلامًا ومرضًا ؛ وإذا كذب عليه فإنه سوف يقوي أمله في الشفاء ويرفع من روحه المعنوية . ومن ثمة وجب عليه أن يكذب . فهذا هو الكذب المحمود .

- هذا هو ما يقرره فلاسفة الأخلاق على اختلاف مذاهبهم باستثناء «عمانويل كانط» صاحب مذهب الواجب .

● هل كذب إبراهيم حقًّا ؟

- وبوسعنا إزالة خاصية الكذب الذميم بتحليل مواقف سيدنا إبراهيم . فحين قال عن زوجته إنها أخته لم يكن كاذبًا لأنها أخته في الله حقًّا . وحين قال لعبدة الأوثان : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء:٦٣) . لم يكن يخبرهم بخبر كاذب ، ولا يُفضي إليهم بمعرفة زائفة ، بل أراد أن يضعهم أمام الحقيقة المخزية ، وهي عبادتهم للأوثان . وقد نجح في عمله : ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنبياء:٦٤) أي اعترفوا بكفرهم . وأما قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ (الصافات:٨٩) ؛ فكان صادقاً لأن قومه أرادوا أن يصحبهم ليشهد عيدًا لهم ، وهو يعلم أنهم سيفعلون فيه منكرات ، فاعتذر لهم بأنه مريض ، وقد كانت تغشاه الحمى حقًّا في تلك الساعة .[1] وحتى لو لم يكن مريضًا ، وادعى المرض ليتجنب الآثام والمعاصي ، فلا يعد ذلك كذباً ، بل ترفعًا فاضلاً .

- والآن جاء الدور على اتهاماته الخرقاء للرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم بالكذب . وهو يقلد بعض المستشرقين وبعض العلمانيين المصريين

---

(١) القرطبي ؛ تفسير الآية ٨٩ من سورة الصافات .

الغُلاة في عدائهم للإسلام . وقد ألَّفتُ ردًا على ذلك رسالة صغيرة نُشرت بعنوان : « كيف ولماذا التشكيك في السُّنة؟ » . [1]

- القمنى المراوغ :

● ويلتزم القمنى باعتقاده بتكذيب الأنبياء ، لكنه حين يواجه الجماهير المسلمة يلجأ إلى المراوغة والختل . ففي حوار تليفزيوني أجراه المذيع عماد الدين أديب ، وشارك فيه عن طريق الهاتف الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، ظل القمنى يراوغ ويداور كي لا يعترف بأنه يكذِّب النبي محمدًا ﷺ والكتاب المُنَزَّل الذي جاء به ، مستغلاً جهل المذيع والمشاركين في الحوار بتكذيبه للأنبياء جميعًا . وضاق المذيع ذرعًا بمراوغاته ، وأراد أن يحسم الموقف الذي حرص القمني على أن يظل غامضًا ، فسأله السؤال التالي : « هل أنت مصدق أو غير مصدق؟ » يقصد التصديق بسماوية القرآن الكريم . لكن القمني راغ من السؤال وأجاب : « سيدي الكريم على أية حال هذه المنطقة أحاول دائماً أنأى بأصدقائي أن يسألوني فيها ! هذا أمر قلبي وعلاقة جوانية بالمقدس » ! [2]

- وسكت المذيع ، لأنه لم يكن يعلم كما نعلم نحن الآن أن القمنى مكذب لجميع الأنبياء . ولذلك لسنا بحاجة لأن نسأله عن إيمانه بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم ، فقد كفانا مؤونة السؤال ، فلم نحتج للسؤال ولم نحاول أن نشق عن صدره ، بعد أن درسنا كلامه .

● والمسلمون يعلمون أن القرآن الكريم تحدى بُلغاء المشركين العرب الذين رفضوا الاعتراف بأنه كتاب منزل من عند الله ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣) ولم يستطع أحد إلى يومنا هذا أن يأتي بسورة من مثله . ولم يستطع الشعراء والحكماء في عهد النبوة أن

---

(١) مكتبة وهبة بالقاهرة ؛ سنة ٢٠٠٧م .

(٢) السؤال الآخر ؛ ص ١٤٧ .

يجمعوا الشذرات المتناثرة في شعرهم لكي يؤلفوا آية ، كما توهم القمنى وأرادنا أن نصدق أن القرآن مجموعة من أقوال الشعراء الذين أسرف في النقل عنهم في كتابه : «الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية» .

- وقد رصدت شركة أمريكية جائزة كبيرة لمن يؤلف آية مثل آيات القرآن ، فأسرع الملاحدة والمرتدون إلى الإسهام في تلك المسابقة . وكان نصيبهم الفشل الذريع ، والسخرية ، والاحتقار !

● وقد ألح قادة ثقيف على النبي ﷺ لكي يؤلف آية تضفى الحرمة على بلادهم . وتحدث القرآن عن تلك الحادثة فقال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾(الإسراء:٧٣-٧٥).

- إن ذلك تقوُّل على الله تعالى . وهو جريمة كبرى . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦) وتبديل آية مكان آية لا يمكن أن يتم إلا بأمر الله تعالى ، وهو ما يسمى النسخ ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦).

● فالقرآن الكريم وحى أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ . ولذلك كانت له قدسيته ، فلا يُضاف له حرف ولا يُنتقص منه حرف ، ولو من كلام الرسول نفسه .

- وقد شدد النبي ﷺ على كتبة الوحي ألاَّ يكتبوا شيئاً من كلامه الشريف مع القرآن . وحين لاحظ يوماً أن أحدهم كان يكتب بعض التفسير الذي قاله النبي سألهم مستنكراً : «ماذا تكتبون؟» فقلنا : ما نسمع منك ! فقال : أكتاب

مع كتاب الله؟ أمحضوا كتاب الله ! »[1] ولذلك كرهوا التعاشير والنقط . وكانوا يضايقون في الحروف ، فلا يتركون بينها فراغاً يسمح بإقحام أي حرف على نصوص القرآن ، وكانوا يمتنعون عن كتابة أسامي السور مع القرآن كيلا يختلط القرآن بغيره[2].

- هذه أحوال أقوام آمنوا بأن القرآن وحي منزل من عند الله تعالى . أما المشركون العرب ، والعلمانيون الملاحدة الذين لا يؤمنون بأن القرآن كتاب منزل من عند الله ، فما أيسر أن يزعموا أنهم وجدوا فيه كلمة قالها شاعر أو جملة رددها حكيم ، ومن ثم يعتبرونه إفرازاً من ثقافة بلاد الحجاز ، وأن البعثة المحمدية رسالة بشرية أرضية لا صلة لها بالسماء . يقولون مثل هذا الكلام ، كما قال الجاهلون إنما يعلمه بشر . ومادامو قد كفروا بمحمد وكتابه فلا ينتظر منهم إلا القبائح والترّهات وسوء الأحدوثة .

هل شك بعض الصحابة في الإسلام ؟

- ومن تلك الترهات التي استخدمها القمنى للتشكيك في الإسلام زعمه أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد شكوا مثله : « في الأمر برمته من الألف إلى الياء » .[3] وهذا التعبير الذي يفيد القطع والشمول ليس سوى نزق ، لا مجال له في العلم الموضوعي المحترم . والقمنى يستند إلى خبر يقول إن المقاتلين المسلمين الذين رابطوا على الصخرة يوم أُحُد - وسُمُّوا أصحاب الصخرة - قد قالوا - حين شاع القول إن النبي ﷺ قد قُتل - ، قالوا : « لَيتَ لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي (رأس المنافقين في المدينة) فيأخذ لنا منه أَمَنَةً من أبي سفيان (قائد المشركين يومئذ) ! يا قوم إن محمدًا قد قُتِل فارجعوا إلى قومكم » .[4]

---

(١) الفتح الرباني ؛ مسند الإمام أحمد ؛ حديث رقم ٥٥ .

(٢) الإمام الغزالي ؛ المستصفى ؛ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) السؤال الآخر ؛ ص ٢٤ .

(٤) المرجع السابق .

والخبر كما ترى يعبر عن انزعاج بعض المقاتلين الذين زُلزلوا زلزالاً شديدًا تحت وقع الشائعة المروعة ، ففكر بعضهم في تأمين أنفسهم بواسطة عبد الله ابن سلول . وليس في الخبر كلمة واحدة تشير إلى أنهم شكوا في الإسلام «برمته» أو في أي جزئية من العقائد أو الشرائع الإسلامية !

والخبر مبتور لكي يؤدى للقمنى غرضه في التشكيك . وبقية الخبر يقول إن الصحابي الجليل «أنس بن النضر» كان واحدًا من تلك المجموعة ، وأنه أنكر على من قال : «ليت لنا رسولاً إلى عبد الله ابن سلول .... إلخ) وقال : «يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن ربَّ محمد لم يُقتل ! فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ ؛ اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، ! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قُتل» [1] ﷺ وأرضاه .

وهكذا نجد اليقين والشجاعة في موقف أنس بن النضر ، وكلماته تشهد بصحة إيمانه . وسلوكه يشهد بصدق يقينه في الإسلام «برمته» !

والخبر يكشف عورة القمني المُغرض المحرِّف المفتري ، ويجرده من رتبة الباحث وصفة العالِم ، ويعطيه شهادة عليا في التزوير والتلفيق والإسفاف !

المرأة في صورتها الإسلامية

● لا يزال القمنى يحاول إحداث أكبر قدر من التشويش والخلط والتضليل والتشكيك .

وقد توهم أنه وجد ضالته في نصوص القرآن والسنة التي تتحدث عن النساء ، فراح يكوِّم بعضها على بعض لتكثيف الغموض وتشويه الصورة الإسلامية الباهرة للمرأة .

● فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب ، ونحن نعيدها بعون الله إلى وضعها السديد ، ونبين معانيها ومغازيها ومقاصدها النبيلة .

---

(١) ابن كثير ؛ البداية والنهاية ؛ ٤/٢٥ .

■ والأصل في هذه القضية يقرر أن المرأة إنسان خلقه الله في أحسن تقويم مثل الذكر ، وذلك بقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:٤) . ومن ثم تُفهم النصوص المختلفة في ضوء هذا الأصل القرآني العظيم .

فإذا قال النبي ﷺ إن المرأة خلقت من ضلع أعوج لم يكن من الجائز اعتبار قوله هذا انتقاصاً من إنسانيتها أو نفياً لما قرره الأصل القرآني عن حُسن تقويم خلقتها . ولابد أن تظل طبيعتها الإنسانية في أحسن تقويم .

● وكيف نفهم حديث النبي ﷺ في ضوء الأصل؟

■ على الرجال أن يتذكروا أن المرأة خلقت من طبيعة الرجل نفسه . والله تعالى يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء:١) . فنحن جميعاً من نفس واحدة ، رجالاً ونساءً ، وطبيعتنا الإنسانية واحدة .

وإذا كانت المرأة قد خلقت من ضلع آدم الأعوج ، فإن آدم احتفظ ببقية الأضلاع العوج ، ومن ثم يجب أن يكون في طبيعته اعوجاج أكثر مما في طبيعة المرأة .

● والقرآن الكريم وصف الإنسان بأوصاف عديدة تثبت ذلك الاعوجاج ، ولم يخص المرأة دون الرجل بالنقص ، ولا خص الرجل دون المرأة به .

● قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ (المعارج:١٩)

● وقال ﷻ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ (عبس:١٧)

● وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ (العاديات:٦)

● وقال ﷻ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء:٣٧)

● وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ (الزخرف:١٥)

● وفى هذه الصفات الذكر والأنثى سواء . وذكر القرآن الكريم صفات أخرى عديدة للإنسان ، الذكور والإناث فيها سواء .

● ثم جعل الفَلاَحَ مرهوناً بالإيمان وعمل الصالحات ، وقال ﷻ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١-٣).

● ويترجم عن هذه المساواة قول رسول الله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم» . واستشهد الطبري به في القول : «الحر بالحر» الرجل بالمرأة ، «والمرأة بالرجل» . وقال عطاء : ليس بينهما فضل»[1]. فهذا هو الأصل القرآني في خلق الإنسان في أحسن تقويم يترجم عنه الحكم في القصاص .

● وقرر القرآن أن الذكر ليس كالأنثى وهذه حقيقة بيولوجية لا تنكر ، وقال : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) فهما متمايزان ، وطبيعة الذكر غير طبيعة الأنثى ، من غير استعلاء أو انتقاص للطبيعة الإنسانية التي جعلها الله تعالى في أحسن تقويم . والاختلافات البيولوجية لا يمكن إنكارها بحال من الأحوال ؛ وهي أساس تمايز الذكورة من الأنوثة .

● وأعطى الإسلام قيادة الأسرة للرجل ، فقال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء:٣٤) ولكي تنجح القوامة في إدارة شئون الأسرة شدد الإسلام على احترام الزوجة لزوجها ، كما شدد على واجب قيام الزوج بواجبات عديدة ، فجعله المكلف بالإنفاق على الأسرة . قال تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(البقرة:٢٣٣) فالقوامة تكليف لا تشريف .

---

(١) تفسير الطبري ؛ سورة البقرة ؛ الآية ١٧٨ ؛ الحديث رواه أحمد في المسند : ٦٧٩٧ من حديث عمرو بن شعيب ؛ ورواه أيضًا ابن ماجه ٢٦٨٥ .

- في ضوء هذا النظام الرباني العظيم يمكننا فهم الحديث الشريف القائل : « ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » . إنه توكيد لواجب الطاعة للزوج ، وليس فيه أية إهانة للمرأة ، ولا انتقاص لكرامتها ، كما أراد القمنى أن يفهمه قراؤه .

● وتقوم الحياة الزوجية على الشورى ابتداءً من فطام الرضيع . فيقول عز وجل : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) .

- فالمرأة يجب أن تشارك الزوج في تسيير الحياة الأسرية ؛ وهى مسئولة عن رعاية أولادها ، وليست مجرد فرج بحسب التعبير الفج القبيح للقمنى ! ودورها في التربية لا يقل عن دور الرجل .

● وأما أنها شريكة إبليس في الغواية فخرافة توراتية ابتلعها القمنى دون وعى ! وفى القرآن الكريم أن الشيطان وسوس لهما ـ لآدم وزوجه . قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾ (الأعراف:٢٠) وبعد أن طاوعاه وأكلا من الشجرة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) وفى سورة طه يبدو آدم المسئول عن تلك المعصية ؛ فيقول الله تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢١،١٢٢).

● فحواء في الصورة القرآنية ليست شيطان غواية ولا هي مركز للشر ولا رفيقة لإبليس ، كما قال القمنى في هذيانه ! [١]

● ولا شك أن خلوة المرأة بالرجل الأجنبي لابد أن تثير الرغبة في الإثم ، لكن ليس ذلك بسبب عجزها عن التحكم في شهواتها ، بل لأن الفطرة البدنية

---

(١) السؤال الآخر ؛ ص ١٩٣ .

لدى الرجل تجذبه إليها ، والفطرة البدنية لدى المرأة تجذبها إليه ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة كإجراء وقائي . لكن تحامل القمني على شريعة الإسلام أعماه عن رؤية الحقيقة وعن تقدير النهي النبوي عن الخلوة ، فطاشت ألفاظه البذيئة في وصف أم البشرية الأولى عليها السلام .

- ويتحدث القمني عن غواية المرأة حديثاً مضللاً خاطئاً . والحق أن الجاذبية الجنسية لدى المرأة والرجل صفة كمال في الخلقة ، وليست نقيصة تؤخذ عليهما . وغياب الرغبة عند الرجل والمرأة نقيصة ، لا ميزة يعتز بها الرجل أو فضيلة تفخر بها المرأة .

● ثم إنه يتكلم عن الخطيئة فيخلط خلطاً مشيناً ، فيزعم أن نساء الأنبياء اقترفن الخطيئة : «مثل امرأة نوح وامرأة لوط» . والحق أنه هو الذي اقترف خطيئة القذف في حق المرأتين ، فالخيانة التي ذكرها القرآن لم تكن خيانة فراش أو زنا ، بل خيانة كفر . فعن ابن عباس قال : «ما بغت امرأة نبي قط» . وهذا إجماع المفسرين : «إنما كانت خيانتهما في الدين . وكانتا مشركتين[1]. وهكذا نرى بشاعة التهور والنزق لدى هذا الكاتب العلماني . إنه يخوض في أعراض نساء الأنبياء دون إحساس بالإثم ، وذلك لأنه لا يؤمن بالأنبياء ، ولا يعرف قيمة العفاف والشرف .

● وللتضليل والتشكيك يصور الإسلام على أنه يحكم على المرأة بأنها ناقصة دين : «لأنها نجسة وطبيعتها النجس . . . »[2]

- وقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري أن : «رسول الله ﷺ خرج في أضحى - أو في فطر - إلى المصلّى ، فمر على النساء فقال : يا معشر النساء تصدقن ، فإني أُريتكن أكثر أهل النار» . فقلن : وبم يا رسول الله؟» قال : «تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أَذْهبُ

---

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ الآية رقم ١٠ من سورة التحريم .

(٢) السؤال الآخر ؛ ص ١٨٣

للرجل الحازم من إحداكن» . قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟» قلن : بلى . قال : «فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم؟» قلن : «بلى» . قال : «فذلك من نقصان دينها» .

● ونحن نلاحظ ما يلي :

- إن الخبر لا يقول إن النساء ناقصات دين لأنهن نجسات ـ كما يزعم القمنى ـ بل لأنهن لا يصلين في فترة الحيض .

- ونحن لا نستطيع أن نفسر هذا الخبر بما يتناقض مع آية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:٤) وعلينا أن نجتهد لاجتناب ذلك التناقض .

- والمرأة لا تأثم بترك الصلاة في فترة الحيض ، لأنها مأمورة بذلك شرعاً . وامتثالها لأمر الشرع طاعة تثاب عليها . ولو أنها صلَّت لكانت آثمة . وقد أشار ابن حجر إلى هذه الحقيقة[1].

- والحيض طبيعة وليس عملاً إراديًا . وقد قال رسول الله ﷺ : «هذا شيء كتبه الله على بنات آدم» . والشرع العادل لا يعاقب الإنسان على الأفعال الطبيعية التي لا إرادة له فيها .

- والمرأة عادة تتأذى من الحيض ولا تتمتع به .

- ثم إن الحيض لا يصاحب النساء من لحظة ميلاد إحداهن إلى وفاتها ، بل يصيبها فى فترة معينة من حياتها ثم ينقطع نهائيًا ؛ فهل يكتمل دينها عندئذ؟ وهل يكون دينها كاملاً قبل أن تحيض؟

- الشهادة :

- قال تعالى في قضية اللعان : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ

---

(١) كتاب الحيض ؛ في فتح الباري:٦- باب ترك الحائض الصوم؛ حديث رقم ٣٠٤-١/٤٠٥.

ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (النور:٦-٩)

- فالرجل يشهد أربع شهادات إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين .

- والمرأة مثله ، تشهد أربع شهادات إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

- ولم يقل أحد أن شهادة المرأة في حالة اللعان نصف شهادة الرجل ، أو أنها تحتاج إلى امرأة أخرى لتشهد معها .

- إذن قاعدة رجل وامرأتان سارية في المسائل التجارية والمالية ، ولا يؤخذ بها في قضايا اللعان ، بل تتساوى شهادة الرجل والمرأة فيه ، على الرغم من خطورته البالغة وما يترتب عليه من فَصْم عُرى الزوجية ونفى الولد .

وتساوى الشهادتين فى اللعان يثبت أهليتها الكاملة وأنها مثل الرجل في أحسن تقويم .

- وعبارة ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (البقرة:٢٨٢) تشير إلى ملكة معينة هي الذاكرة ، وهي : « قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها » .

- والعقل مجموعة من الملكات ، أهمها « ملكة الفهم » أو : إدراك الأشياء على حقيقتها . وهى تختلف عن الذاكرة اختلافاً بيناً . وقد ورد لفظ « تعقلون » كثيراً في القرآن الكريم ، بمعنى « تفهمون » أو « تدركون » .

- قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢)
- وقال جل شأنه : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:١٠٩).

● وقال ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢).

- وعلى هذا لا يجوز القول إن ضعف الذاكرة هو نقصان في العقل ؛ وقد يكون المرء ضعيف الذاكرة ، ولكنه حاد الفهم عظيم الإدراك . ومن ثَمَّ لم يكن من الممكن القول إن الأنثى ناقصة في عقلها لأنها ضعيفة الذاكرة .

● ومن الحقائق المعروفة : تفاوت الأفراد في قوة الذاكرة وقوة الفهم ، بحيث لا يمكن تعميم ضعف الذاكرة في الإناث جميعًا أو في الرجال جميعًا . وقد لوحظ تفوق الإناث في المواد العلمية التي تحتاج إلى الذاكرة ، وقد تفوقت البنات في الامتحانات الجامعية بمصر على الذكور .

● وإننا لا نستطيع القول إن النساء ناقصات عقل ودين بما فيهن مريم ابنة عمران ، وأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ ، وبناته الفضليات الكريمات .

● وقد قال رسول الله ﷺ : «حسبك بمريم بنت عمران وامرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد من نساء العالمين» . [1] فتحتم أن نفهم الحديث على أنه يدين بعض النساء اللاتي تحدث إليهن النبي عليه الصلاة والسلام .

* * *

(١) تفسير الطبري ؛ الآية ٤٢ من آل عمران .

مريم (بنت عمران) وامرأة فرعون (آسية بنت مزاحم): مثالان للإيمان الصادق

● ولقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران:٤٢،٤٣). فهذه السيدة لا يمكن أن تكون ناقصة عقل ودين ، بل هي إنسانة في أحسن تقويم ، ومثل أعلى في كمال الدين .

● وقال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم:١٢) وهذه شهادة ربانية لمريم بالعفاف والطهر والإيمان . وقال رسول الله ﷺ : « مريم خير نساء أهل الجنة » .

● وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١) . فهذه المرأة مَثَل للإيمان والشجاعة والثبات على الحق في مواجهة الطاغوت الفرعوني !

● هذه الآيات البينات تشهد لنساء كريمات بالفضل والسمو على سائر النساء ، وتضرب بهن المثل على الإيمان واليقين والشموخ . وهي تحطم تلك الصورة السوداء الخسيسة التي أراد القمنى أن يفرضها على جنس الإناث عامة . ولذلك تحدث عن خيانة نساء الأنبياء ، وزور عليهن تهمة الزنا ، ثم سكت عن المُثل العليا الوضاءة للنساء المؤمنات ، لكي يوهم القارئ بأن جنس النساء كله خائنات نجسات ، حتى أزواج الأنبياء !

● وقد أراد القمنى أن يثبت أن المرأة خائنة بطبيعتها ! ونسى قول رسول الله ﷺ :« كل ابن آدم خطاء » ، وأن الذكور والإناث معرضون للخيانة ، لا النساء من دون الرجال . فهذا هو الضلال المبين !

● صفوة القول إذًا : إن شهادة المرأة تساوى نصف شهادة الرجل في الديون ، لكن شهادتها في اللعان تساوى شهادته .

- وهـذا يعنـى أن عقلـها يسـاوى عقلـه . أو علـى الأصـح ذاكرتهـا تسـاوى ذاكرته .

● **هذه الحقائق يجب أن تحملنا على توكيد أن المرأة مثل الرجل «في أحسن تقويم» ومن ثَمَّ يجب أن نسلم بأن عقلها مثل عقله . وبهذا نتحاشى التناقض بين الأصل القرآني والحديث الشريف .**

- ولنا أن نقول إن النبي ﷺ أراد أن يؤدب تلك المجموعة المعينة من النساء ومن كن مثلهن بتحذيرهن من سوء معاملة الأزواج بكثرة اللعن والكفران بالعشير . ومن المستحيل أن نقبل القول إن جميع نساء المؤمنين كن يفعلن تلك السيئات ، لأن الأغلبية من نساء المؤمنين كن فضليات قانتات . وقد قال رسول الله ﷺ : «خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش ، أحْنَاهُ على ولد في صغره ، وأرعاهُ على زوج في ذات يده»[1]. فالتعميم هنا خطأ جسيم وإساءة فادحة لنساء هذه الأمة .

التشكيك في شريعة المواريث :

● والقمنى يريد تغيير الإسلام أو تطوير وإحلال العلمانية محله . ولذلك يزعم أن شريعة الميراث في الإسلام تغيرت عدة مرات في عهد النبوة المحمدية ، ويقول : «أما مسألة المواريث فقد تغيرت حسب المتغيرات زمن الدعوة ، زمن وجود وحياة الرسول ثلاث مرات : المرة الأولى «الإرث لذوى الأرحام دون تحديد . . . ثم نُسخت بآية الوصية ، ثم نُسخت بـ ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١).

- فلماذا لا يستمر التغيير بصفة دائمة إلى اليوم؟ لماذا لا نعطى للأنثى مثل حظ الذكر؟

---

(١) تفسير الطبري ؛ تفسير الآية رقم ٤٢ من سورة آل عمران .

- والقمني يؤمن بأن تغير وسائل الإنتاج لابد أن يجلب تغيرات في كل شيء[1]. وعلى هذا يطالب بتجاوز شريعة المواريث القرآنية ، وذلك يتحقق بإحلال شريعة أخرى محلها ، لأن تغيرات واسعة جداً وقعت في مجالات الصناعة والإنتاج والتجارة ووسائل الإنتاج .

- ومعلوم أن آية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾(النساء:١١) هي آية محكمة ، ومن ثم لا يجوز تفسيرها على أي نحو آخر . وأما تجاوزها فجريمة كبيرة في الدين ، ولا يمكن أن يجرؤ عليها مسلم .

● ولقد كان العرب يتوارثون قبل الإسلام «بالحلف» ؛ وكان الرجل يقول للرجل : دَمِي دَمُك ، ومالي مالك ، تنصرني وأنصرك ترثني وأرثك ، فيتعاقدان الحلف بينهما على ذلك ، فيتوارثان به دون قرابة ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ (النساء:٣٣) ثم نُسخ ذلك ، وصار التوارث بالإسلام والهجرة . فإذا كان للرجل ولد ، ولم يهاجر ، ورثه المهاجرون دونه ، وذلك قوله ﷺ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ (الأنفال:٧٢) ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٥) [2] وكان الجاهليون يعطون المقاتلين فقط ، ولذلك استنكفوا قواعد الميراث القرآنية التي تعطى المرأة والصبي [3]

- ومن الطبيعي أن يُلغى الإسلام نظام التوارث الجاهلي . ثم كانت الأمة المسلمة الصغيرة المضطهدة لا تستطيع أن تعيش في مكة تحت إمرة المشركين عيشة طبيعية فاضطرت إلى الهجرة فراراً بدينها . وكان من المحتم المآخاة بين المهاجرين والأنصار ، وما صحب ذلك من تضحيات جسام لتمكين المهاجرين من بدء حياة جديدة في يثرب ، وإقرار نظام الميراث يحفظ عليهم

---

(١) حروب دولة الرسول ؛ ص ١٠-١٥ .

(٢) ابن قدامة ؛ المغني ؛ ١/٢٣٠ ، ٢٣١ ـ نشر مكتبة الجمهورية العربية .

(٣) تفسير الطبري ؛ تفسير الآية رقم ١١ من سورة النساء .

أموالهم . وكان كل شيء في تلك الفترة استثنائيًا ومؤقتاً إلى أن استقر القوم في الحياة الجديدة ، فاعتمدت القاعدة الأساسية التي ارتضاها الله ، وهى قاعدة التوارث على أساس ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٥) وهو الأساس المعروف العادل والمنطقي ، لأن الأسرة كيان واحد وثروتها ملك لجميع الأفراد ، لأنهم يشاركون - غالباً - في تكوينها وتنميتها . ونَظَّم الإسلام شرائع الميراث بما يحقق العدالة ، وما يراعى المسئوليات المالية للذكور والإناث في الحياة الاجتماعية .

- ولابد أن نذكر أن المسيحيين المصريين اختاروا النظام الإسلامي وفضلوه على النظام البريطاني الذي كان يعطى التركة كلها للابن الأكبر ، والذي غيره البريطانيون فيما بعد لافتقاره للعدالة .

- لكن القمنى يتظاهر بغيرته على النساء فيطالب بتجاوز الآية القرآنية المحكمة ، ويتناسى النظام الأسرى في الإسلام حيث تعفى البنت من الإنفاق على نفسها ، ويكلف أباها بذلك . وليس عليها تبعات مالية عند زواجها ، فالرجل يتكفل بالصداق وبتأثيث بيت الزوجية والإنفاق على الزوجة والأولاد . فهذا نظام كامل يختلف عن النظم الأوروبية والأمريكية ، ويمتاز عليها بما له من أسس دينية راسخة ، وبقدرته على تشكيل مجتمعات مستقرة يسعد فيها الأزواج والزوجات والأولاد جميعاً .

- ولكي يسوِّغ القمنى مطالبته بتجاوز النصوص القرآنية والحديثية وتحقيق التغييرات التي يشتهيها ، يشير إلى النسخ (المعروف في أصول الفقه) كوسيلة للتغيير . لكنه يجهل القواعد التي جرى النسخ على أساسها .

- وأول ذلك أن لا نَسْخَ بعد رسول الله ﷺ . فالنسخ : رفع الشارع حكماً منه متقدماً بحكم منه متأخرا»[1]. ومثاله قول النبي ﷺ : « كنت نهيتكم عن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ ١/٣٥ .

زيارة القبور ، فزوروها»[1]. والآن ، من ذا الذي يرفع حكما شرعيًا ويحل محله حكماً آخر؟ !

- ونَسْخُ آية قرآنية لا يجوز إلا بآية قرآنية . واستشهد علماء الأصول على صحة هذا المبدأ بقول الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس:١٥)[2].

- وما نسخه القرآن صنف معين من الأحكام التي تختلف باختلاف الزمان والمكان والعصر ، أما ماله صفة العموم من الفضائل وما يشتق من الفطرة الإنسانية فإنه غير قابل للنسخ كالعقائد ، لأنه شريعة الإنسانية الأبدية ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ (الشورى:١٣)[3].

● إذن لا مجال للنسخ الآن بعد وفاة الرسول ﷺ . والتغيير له مداخل أخرى من خلال ما لا نص فيه ومن خلال النصوص التي تقبل التفسير على أكثر من نحو . والظاهر أن القمني يجهل ذلك أو يتجاهله بُغْية الترويج للشكوك في الشريعة الإسلامية[4].

شك الإمام الغزالي وشك القمني :

● إن القمني شاك في الإسلام ويسعى إلى التشكيك فيه . وهو يتوهم أن شكه مثل شك الإمام الغزالي رحمه الله . فإذا لم يؤخذ على الإمام شكه ، وجب

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ ١/٣٥ .

(٢) أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ ص ١٤٩

(٣) أصول الفقه ؛ ص ١٧٤ - الفقرة رقم ١٨٩

(٤) تفصيل القضية في كتابي «هل يمكن تطوير الإسلام» ؛ مكتبة وهبة ؛ سنة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م .

ألاّ يؤخذ عليه شكه أيضاً . وهو يتوهم أنه بهذه المغالطة الفجة يقنع القارئ بأنه مظلوم من قِبل نقاده الذين طالبوا بمحاكمته ولم يطالبوا بمحاكمة الإمام الغزالي !

- ومعلوم أن الإمام الغزالي كان يبحث عن اليقين ، وقد ضاق ذرعاً بالشك أو عدم اليقين . فالمحسوسات ليست يقينية . فالمرء ينظر إلى الكوكب فيراه صغيراً ، لكن الأدلة الهندسية تثبت أنه أكبر من الأرض . والعقليات ليست يقينية ، فأنت ترى أشياء عديدة في المنام ثم لا تلبث أن تستيقظ فلا تجد منها شيئاً ! فبم نأمن أن يكون ما ندركه في اليقظة إذا تغير حالنا إلى حالة نكتشف فيها أن ما ندركه بالحواس والعقليات خيال ! ويقول الإمام : « فأُعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمَقال ، حتى شَفَى اللهُ تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين » . وكان الشفاء بنور قذفه الله في صدره[1] .

- فلم يكن هدف الإمام تشكيك المسلمين في دينهم أو في نبيهم وقرآنهم ، ولذلك لم ينطق بكلمة تثير الشكوك ، وكتم حالة السفسطة التي انتهى إليها لمدة شهرين . ثم لما عاد اليقين إلى عقله وقلبه أفضى إلى تلاميذه بالحقيقة .

● وهذا هو ما يسمى بالشك المنهجي الذي يتخذ وسيلة لتحصيل اليقين . أما القمنى فقد ملأ الدنيا صراخاً بشكوكه الهشة المبتذلة ، ورفض التقدم خطوة واحدة نحو اليقين !

● واشتهر في نهاية القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر (١٥٩٦-١٦٥٠م) الفيلسوف الفرنسي الكبير رينيه ديكارت الذي اتخذ من الشك المنهجي أداة لبلوغ اليقين ؛ وهو منهج الإمام الغزالي في جوهره .

---

(١) أبو حامد الغزالي ؛ المنقذ من الضلال ؛ نشر مكتبة الجندي ؛ القاهرة ؛ تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ؛ دون تاريخ ؛ ص ٣٠ ، ٣١ .

- فقد أزعجه اختلاف الفلاسفة وعجزهم عن حل المسائل التي أخذوا أنفسهم بحلها .

- شك ديكارت في كل معرفة وقال : «ولكني مهما شككت . . . فستبقى لي حقيقة واحدة . . . وهي أن هناك ذاتاً تشك ! ، والشك ضرب من التفكير ، فما دمت أفكر فأنا موجود (Je pense donc je suis).[1]» بدأ ديكارت بتكذيب عقله في كل ما يجيء به ، وانتهى بتصديق عقله في كل ما يصل إليه ، على شرط أن تكون الفكرة التي يصل إليها العقل جلية واضحة»[2].

● وشتان بين الغزالي وديكارت وبين القمني وأمثاله . فكلامهما فلسفة وفكر عميق ؛ وكلامه تهريج هدفه التشكيك والتشكيك فقط ، والترويج لذلك والتكسب به لدى أعداء الإسلام من العلمانيين ، وقد بلغ مأربه ونال جائزة الدولة التقديرية من أيدي الزمرة العلمانية التي تدير وزارة الثقافة المصرية !

- ويكذب القمني على الإمام الغزالي ويتقول عليه وينسب إليه ما هو منه براء ، وقد علمنا ما حدث للغزالي كما شرحه الإمام بنفسه ، فلم نجد في كلامه أنه شك في حقائق الدين : «حتى وصل به المدى إلى التشكيك في وجود الذات الإلهية ذاتها» كما يدعي القمني[3]. وغرض القمني بهذا أن يسوِّغ لنفسه الشك : «في كل أمر من أمور الدين»[4].

هل شك عمر رضي الله عنه في الإسلام :

● وهو يستند إلى موقف المسلمين يوم الحديبية ، بعد تزويره ، فيصور اعتراض عمر بن الخطاب على شروط الهدنة التي قبلها النبي ، يصوره على أنه «شك في الأمر كله»[5]. يا للهول ! !

---

(١) أحمد أمين وزكي نجيب محمود ؛ قصة الفلسفة الحديثة ؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م . ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ؛ ص ١٠٤ .

(٣) السؤال الآخر ؛ ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) السؤال الآخر ؛ ص ٢٣ .

● ولم يكن الاعتراض شكًا في أي أمر ، لا في العقيدة ولا في الشريعة ، وإنما كان غضباً من الشروط المجحفة التي تضمنها الاتفاق ؛ وسرعان ما عاد عمر إلى الرضا والقبول بما قبله النبي ﷺ . ولم يلبث عمر ـ الذي ثار على تلك الشروط ، دون جميع القوم ، (بعد حواره مع أبى بكر الصديق) أن انضم إلى الجماعة . ولو كان هناك شك «في الأمر كله» كما زعم القمنى لانفرط عقد المسلمين وذهب كل فريق في طريق ، بل ربما اقتتلوا فيما بينهم ، وانهارت أسس الدولة المسلمة الناشئة ، وارتد كثيرون إلى الوثنية !

- لم يحدث شيء من هذا مطلقاً ، وعادت الجماعة المسلمة متحدة قوية ، ملتفة حول نبيها الكريم ﷺ .

- قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ معرباً عن عدم رضاه عن الهدنة : علام نعطى الدنية في ديننا؟ قال النبي ﷺ : «أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ! » فكان عمر يقول : «مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق ، من الذي صنعت يومئذ ! مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً»[1].

● إذن ، كان قرار النبي بوحي من عند الله . وقد كان فى مصلحة المسلمين ، ووصف الله تعالى ما حدث بأنه فتح مبين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح:١) . وأثبتت الأحداث بعد ذلك أنه كان فتحاً مبيناً على المسلمين .

التشكيك وسيلة والهدف هو العلمنة :

- وفى نهاية هذا المبحث يمكن القول إن القمنى يصطنع التشكيك لهدم الإسلام وإزالته لتمهيد التربة لتأسيس العلمنة . وهو يصرح بذلك ويقول إن هدفه :«أن نحقق العلمنة على الساحة الثقافية على الأقل ، وهو أدنى المطالب . ساعتها يمكن القول إن هناك أملاً في أننا سوف نكون»[2]. كأننا اليوم أموات ، والعلمنة هي التي سوف تحيينا !

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ٣/٣١٧ .

(٢) السؤال الآخر ؛ ص ١٧

- وفى موضع آخر يقول القمنى إن إصلاح شئون مصر لا يتحقق إلا بالعلمانية : «وهو إصلاح ممكن وسهل لو خلصت الضمائر لمعاني الدولة المدنية الديموقراطية الليبرالية المعلمنة»[1].

● ومعلوم أن العلمانية تستبعد كل كتاب سماوي وكل تراث نبوي ، وترى أن الإنسان ليس في حاجة إلى السماء في فكره وفى تنظيم حياته . ولذلك هي تقف ضد التعاليم الدينية التي تنظم حياة الإنسان الفرد والمجتمع ، ولا تلقى بالاً للتشريعات والأخلاقيات التي تناقض مبادئ الدين ، كما هو الحال في الدول الغربية .

- فالدعوة إلى العلمنة هي دعوة مضادة للإسلام لأنها تقود الناس إلى الخروج منه ونبذه كليًا . ولذلك أخذ على عاتقه التشكيك في الإسلام وتكذيب الأنبياء ليمهد لها .

- وهو يعلن صراحة أنه يرفض بل ويقاوم قيام دولة إسلامية .

● ولولا ضمان الدولة المصرية له لما جرؤ على هذا التصريح فالدولة مثله تعلن ليل نهار أنها ضد قيام دولة دينية . ولكن الشعب المصري شعب مسلم ويرفض العلمنة .

● وفى موضع آخر يقول إنه لا خلاص من الدولة الدينية : «إلا بسعي حقيقي دائب لا يفتر ولا يكل من أجل إقامة دولة مدنية مؤسساتية حقًا وصدقاً ، وقبل ذلكَ مْدينَةُ العقل المصري وعلمنته وتعليمه معاني الحريات وتدريبه عليها ...»[2]

● وتكذيب الأنبياء والتشكيك في الإسلام هما المنهج الذي اتبعه القمنى لبلوغ أهدافه .

* * *

(١) السؤال الآخر ؛ ص ٢٢٠ .
(٢) المرجع السابق ؛ ص ٢٢٧